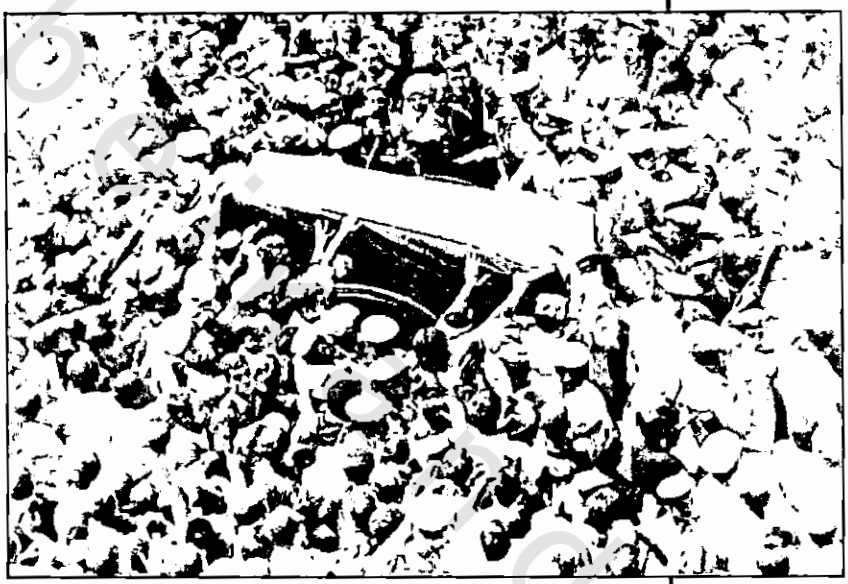

وفاة عبد الناصر ... كلام أخير

obeikandl.com

برغم مرور الأيام والسنوات وتقادم العهد ، فإن الجدل والاختلاف يبقيان قائمين حول الشخصيات الكبرى في التاريخ ، ولما لا وهم من وضعوا التاريخ ، بكل أفراحه وأتراحه ، يخبو الجدل حينا ويزدهر حينا أخر .... طبقاً لدواعي الأحداث .

وفي عصرنا الحديث يقف الموت المبكر للزعيم جمال عبد الناصر الذي توحى خصوبة سيرته التي ملأت وجدان المصريين والعرب والكثير من بلدان العالم ، بأن الرجل قد عاش ألف عام أو يزيد .

وتنشر الدهشة خيمتها على الأفهام والتصورات حين يعرف البعض – حتى الآن – أنه مات وسني عمره فقط ٥٢ عاماً !

هل صدمت الجماهير المصرية والعربية في وفاة عبد الناصر ؟

الجواب الأكيد الذي لا يقبل الشك : نعم .... بل وصلت الصدمة عن البعض إلي درجة الانفعال والانفلات المجنون .

ولكن لماذا وهم يؤمنون بأن الأعمار كلها بيد الله وحده ؟

هل لأنه مات صغيراً ٥٢ عاماً ؟

أم لأنهم لم يعلموا حقيقة مرضه وخطورته ؟

أم لأنه هو الذي كان يفكر ويقرر ، هو الأب والرب ، هو كل شئ

له الطاعة ومنه الخوف وله الحب ؟

حال الناس وقتها يقول : لكل هذه الأسباب وغيرها فجعت الجماهير في موت عبد الناصر ... حتى أن بيان الوفاة الذي ألقاه نائب رئيس الجمهورية وقتذاك أنور السادات ..... قال بالحرف الواحد : « أن جمال عبد الناصر كان أكبر من الكلمات ، وهو أبقي من كل الكلمات » .

وسواء كنت تحب عبد الناصر لدرجة العشق المجنون وتصفه بأنه أخر الأنبياء وأنه كان كثيراً علينا ..... كما فعل نزار قباني في أشعاره ..... أو تكون عكس ذلك تماماً وتصفه بالمفتري وأنه كان لا يؤمن بالمسجد ولا بالسجود ولا برب هذا البيت ..... كما ذكر أنيس منصور في كتابه « عبد الناصر المفتري عليه والمفتري علينا » ..... سواء كنت هذا أو ذاك أو حتى وقفت في منطقة وسطي .... سيبقي الرجل عنواناً لثورة وجزء مهماً من تاريخ أمة عريقة ..... وسيبقي الجدل حوله طويلاً ، في سياساته ، في صحته ومرضه ، في أهدافه القومية والشخصية وسيقف الجدل طويلاً علي قبره .. مهما كانت الأدلة قاطعة وخزائن الأسرار خاوية أو علي حد وصف الدكتور / الصاوي حبيب الطبيب الخاص للرئيس جمال عبد الناصر لهذا الكتاب .

« الآن أصبحت أسرار وفاة عبد الناصر كتاباً مفتوحاً لا ألغاز فيه » ..... رغم ذلك سيظل هناك من لا يقتنع ، ويظل هناك من تساوره الشكوك ... وتلك هي طبيعة الأشياء ، الجدل ، حول الشخصيات الكبرى المؤثرة في التاريخ .

وكانت البذرة الأولي لهذا الكتاب تحقيق صحفي نشرته بمجلة الأهرام العربي التي أعمل بها في ١٧ إبريل ٢٠١٠ يعني لم تكن المناسبة تاريخية كما هو المعتاد مثل مناسبة الميلاد أو الموت أو قيام الثورة ..... ولا حتى مناسبة جغرافية ترتبط بمكان ما له علاقة بموت عبد الناصر .... وإنما كانت مناسبة اكتشافية – إذا صح التعبير – فما حدث هو اتصال هاتفي تلقيته من الدكتور الصاوي حبيب وصوته ملئ بفرحة الاكتشاف وكأنه أعتق من حبل المشنقة الظالم ..... ولما لا وقد كانت أحاسيس الرجل هكذا فقد كان كثيراً ما يقال : لا أدري ما أفعل ليصدقوا بأن أطباء عبد الناصر أبرياء مما يدعي البعض أنه مات مسموماً .

ذهبت إلي الدكتور الصاوي في عيادته البسيطة بشارع الجمهورية ـ قبالة قصر عابدين ..... لأعرف أسرار الفرحة وتفاصيل الحكاية .

وكنت قد تعرفت علي الدكتور الصاوي قبل ذلك بحوالى عامين عندما أصدر كتابه « مذكرات طبيب عبد الناصر] وأعجبني الكتاب وبساطة التناول فقمت بنشر عرض صحفي في عدة حلقات ..... وذات يوم وبعد نشر الحلقة الأولي رن جرس الهاتف في مكتبي بالأهرام العربي ..... وجاء صوت يشاغبني طالباً أن أخمن من هو !!!!

ولما أعلنت حيرتي وفشلت قال : تكتب عني ولا تعرف صوتي ؟

أنا الدكتور الصاوي .. وكانت مفاجأة أكبر من سعيدة بعدها توالت اللقاءات والأحاديث .

ثم مرت الأيام والأيام وفجر الكاتب الصحفي محمد حسين هيكل حكاية إدعائها القهوة المسمومة التي قدمها الرئيس السادات للرئيس عبد الناصر في فندق هيلتون أثناء انعقاد مؤتمر القمة الأخيرة في سبتمبر ١٩٧٠ لمحاولة وقف نزيف مذبحة أيلول الأسود ضد الفلسطينيين من قبل الأردن .

وحتى تكتمل الفكرة كان لابد من الاستعانة بالكثير من الكتابات التي تناولت قضية موت عبد الناصر بكل جوانبها .

قبل الموت وأثناء الموت وبعده وماذا فعلوا بالجثمان ؟ ومكان الدفن الذي لم يكن مخطط له بل لم يكن علي خريطة التفكير الرسمي أو الشعبي ... فقد كان الموت – كما أسلفنا – صدمة مباغتة أفقدت الكثيرين صوابهم

ويبرز سؤال اعتراضي يقول :

..... لماذا كانت الصدمة في موت عبد الناصر ولم تكن في موت عبد الحليم حافظ بهذا القدر القاسي ؟

رغم حب الصغير والكبير لعبد الحليم حتى الآن ؟!

ولما لم تدر حوله الشبهات مثلما دارت حول وفاة عبد الناصر رغم موته في سن

مبكرة عن عبد الناصر ٥٢ عاماً وعبد الحليم عن ٤٨ عاماً .

قد يستغرب البعض ويستنكر قائلاً : ليس هناك وجه مقارنة فهذا مجرد مطرب مهما بلغ شأنه وهذا زعيم خالد وقائد من طراز فريد ما زال الشباب يرفعون صوره في أقطار الوطن العربي .

الحق يقال لم تحدث المقارنة بهذا المفهوم وإنما في رد فعل الناس فالحزن الشعبي علي موت عبد الناصر لم يتكرر إلا لموت عبد الحليم حافظ وأم كلثوم .

ولكن الفارق هنا هو « دور الإعلام » فالناس كانت تعلم جيداً حقيقة مرض عبد الحليم بل كان أحد أسباب التعاطف والحب وربما الشفقة – ومن هنا كان موته متوقعاً وعادياً رغم الحزن الجارف علي هذا الموت .

أما عبد الناصر فلم يعلم بحقيقة مرضه سوي الدائرة الضيقة جداً جداً التي حوله لا يتعدى أفرادها أصابع اليد الواحدة .

ذكر ذلك الدكتور الصاوي حبيب والدكتور منصور فايز – من أطباء عبد الناصر – وسر ذلك خشية عبد الناصر أن يؤثر هذا علي الروح المعنوية لشعب يئن من هزيمة ١٩٦٧ وجيش ما زال مفككاً يلزمه إعادة بناء ..... وفوق ذلك عدو يتربص بمصر وقائدها .

وفي كتاب « زعماء علي فراش المرض » ... يقول الدكتور باسم عادل عبد الصادق أستاذ أمراض القلب بالمعهد القومي للقلب :

أن كل الحكام يخفون أخبارهم الصحية ويرفضون أن تتداول وسائل الإعلام تقاريراً عن حالاتهم الصحية ، خاصة إذا كانت بلادهم في مواجهة سياسية أو عسكرية مع أي دولة أخري بالعالم ، ويخشى أن يتسرب خبر مرض الحاكم فيرفع الروح المعنوية للأعداء ، ومن الناحية الأخرى يثبط من همم شعوبهم وجنودهم ، ونسبة نادرة من الحطام يواجهون شعوبهم بحقيقة حالتهم الصحية ..... وقد

يكون وراء ذلك أحياناً أغراضاً سياسية أخري أو لاستجلاب تعاطف الشعب خاصة مع مقدم الانتخابات الرئاسية .

وكان عبد الناصر من النوع الذي يفضل أن يظل قوياً بلا أمراض عفياً بلا أوجاع .

وكذا فقد كان يراه الناس شامخاً قوياً عصياً علي الأمراض والفناء ... قادراً علي كل شئ .

حتى بعد الهزيمة وحكاية التنحي ..... كانت صدمة الناس بذهاب عبد الناصر عن سدة الحكم أكبر بكثير من الهزيمة ..... مثل الأب القاسي جداً علي أولاده .... الفاشل أمام أعدائه ولكن ليس لهم سواه .

أفقدهم روح المقاومة والتصرف من غيره – وتلك كانت – كما قالها الناصري الكبير محمود نور الدين قائد تنظيم ثورة مصر – أن خطيئة عبد الناصر الكبرى هو أنه أفقد الشعب المصري روح المقاومة ..... فقد كان يفكر لهم ويقرر لهم ويختار لهم ويتولى شئونهم الكبيرة والصغيرة ما عليهم سوي الطاعة والطاعة العمياء فعندما مات وجد الناس أنفسهم عرايا مادياً ومعنوياً عموماً لسنا بصدد محاكمة تاريخية للزعيم الراحل وإنما في كشف أسرار موته المبكر وتفنيد الأقاويل الكثيرة التي قيلت في ذلك ..... وحكاية السم الأمريكي والمدلك الجاسوس « العطفى » وسحر حاخامات إسرائيل الأسود .....

... وحكايات مسجد عبد الناصر الغريبة ..... وقهوة هيكل المسمومة ..... وعلاقة أمراض عبد الناصر بالوفاة وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بكشف أسرار وفاة عبد الناصر التي قيل فيها الكثير والكثير ومن العجيب في هذا الشأن أن الاتهامات لم تقف عجلاتها أمام الرئيس السادات فقط وإنما ويا للعجب هنا اتهام الرئيس المخلوع محمد حسني مبارك بالتخطيط لقتل عبد الناصر ثم السادات

لصالح دول عربية بعينها وعلي رأسها السعودية فتحت عنوان يقول:

« هل الرئيس حسني مبارك قتل الرئيسين جمال عبد الناصر وأنور السادات بمؤامرة آل سعودية !!! »

كتب أنيس محمد صالح الباحث في التاريخ والتراث في المجلة الالكترونية « الحوار المتمدن » العدد ٢١٨٧ بتاريخ ١٠/ ٢/ ٢٠٠٨ .

مقالاً مطولاً يفند فيه الخلافات بين عبد الناصر والملك السعودي فيصل والشتائم التي كان يوجهها ضده عبد الناصر وهكذا ..... وظل المؤلف ينتقل بين سطور أفكاره والتي أطلق لنفسه فيها العنان في لصق التهم التي يصعب نقلها عنه ... حتى وصل إلي نتيجة بلا أدلة اللهم إلا الإحساس بأن مبارك وراء قتل ناصر والسادات بتحريض من آل سعود .